فلسطين
رؤية حضارية

أ.د. بدرالدين زواقة

جامعة باتنة / الجزائر

تعتبر الرؤى التجزيئية للقضايا والأحداث مأزقا معرفيا عاني منه الإنسان منذ القديم، باعتبار تنشئته وموقعه الثقافي والاجتماعي.

ومن بين هذه القضايا المهمة والأساسية في تاريخ الإنسان قديما وحديثا، الموقف من المدن المقدسة – مع تحفظي على هذه التسمية – التي أخذت حيزا في الصراع السياسي والأيديولوجي لقرون من الزمن.

فكان هذا البحث محاولة لقراءة متكاملة ومقاربة حضارية شاملة لفهم ظاهرة فلسطين من خلال تتبع ما كتبه فلاسفة الحضارة، من بينهم مالك بن نبئ وعبد الوهاب المسيري وطه عبر الرحمان....

والهدف من ذلك تجاوز التفاصيل والجزئيات واختصار الجهد المعرفي والثقافي في فهم "فلسطين" موقعا وميقاتا، والارتقاء بها من منطقة صراع إلى نقطة تواصل إنساني حضاري، وهذا لا ينفي بالضرورة الحقوق الطبيعية والشرعية والقانونية للشعب الفلسطيني المرابط.

أولا: فلسطين في القرآن:

يرجع الباحث دائما صاحب الرؤية الحضارية إلى القرآن الكريم باعتباره مصدر المعرفة الإنسانية والرؤية الكونية، ذلك أنه "كريم "، ومن كرمه تجدد وجود معارفه التي تفسر كل مظاهر وظوهر كل الأزمنة والأمكنة والأحوال.

فكان لا بد من الاعتماد عليه في فهم المصطلح والمفهوم، من خلال الرؤية الموضوعية الاستشرافية.

و قد ذكر الله تعالى "فلسطين " في مواضع عديدة نحاول جمعها من خلال هذا العرض:

١. : **الأرض المباركة:**

في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ (الإسراء:١)

وذُكرت فلسطين بهذه الصفة في خمسة مواضع؛ وهي:

- ✓ ﴿سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَـٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ (الإسراء:١).

- ﴿ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَـٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴾ (الأعراف:١٣٧).
- ﴿ وَنَجَّيْنَـٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَـٰلَمِينَ ﴾ (الأنبياء:٧١).
- ﴿ وَلِسُلَيْمَـٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَـٰلِمِينَ ﴾ (الأنبياء:٨١).
- ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَـٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ ۖ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴾ (سبأ:١٨).

ثانياً: الأرض المقدسة:

وذكرت فلسطين بهذه الصفة في موضع واحد في القرآن الكريم وهو قوله تعالى:

﴿ يَـٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَـٰسِرِينَ ﴾ (المائدة:٢١).

ثالثاً: أرض المحشر:

قال الله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مِن دِيَـٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ﴾(الحشر:٢)،

رابعاً: الإشارة إلى فلسطين دون ذكر صفة من صفاتها:

وجاء ذلك في عدة مواضع كما في قوله تعالى:

١- ﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَـٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴾ (الإسراء:٤)،

٢- ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّـٰلِحُونَ ﴾ (الأنبياء:١٠٥)،

٣- ﴿ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَـٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ (يونس:٩٣)،

٤- ﴿ وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ﴾ (التين:١-٢)،

خامساً: ذكر مناطق في فلسطين:

أشار القرآن الكريم إلى بعض مناطق فلسطين ومن ذلك قوله تعالى:

١- ﴿ وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَـٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾ (المؤمنون:٥٠)،

٢- ﴿ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴾ (مريم:٢٢)،

٣- ﴿ وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴾ (ق:٤١)،

٤- ﴿ وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (البقرة:٥٨)،

٥- ﴿ أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا ﴾ (البقرة: ٢٥٩).

٦- ﴿ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ ﴾ (البقرة:٢٤٩)

٧- ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ (النمل:١٨).

من خلال ما سبق من صفات جمال وجلال ندرك أنها أرضا اختارها الله لتكون:

- ✓ أرض الإيمان .
- ✓ أرض العيش السلام.
- ✓ أرض التواصل الإنساني.
- ✓ أرض الحضارة.

و هذه المقومات ميزتها عن باقي الأراضي والبقاع وففي غياب هذه الرؤية تحولت إلى:

- ✓ أرض ابتلاء.
- ✓ أرض تيه.
- ✓ أرض صراع.

ثانيا: أهمية الرؤية السننية والحضارية.

١- **دلالة "الإسلام " كمعنى حضاري ورمزية المعنى.**

فاذا كان اليهود ينتسبون لأرض يهودا، المسيحيون لشخص المسيح والمسلمين لقيمة السلم والسلام.

وأتصور أن هذا المنطلق الحضاري يفسر لنا جوهر المشكلة وحقيقتها، فإذا "كنا قد سلطتنا الضوء في هذه الدراسة على الصهيونية المسيحية ونشأتها ودورها في إقامة إسرائيل في المنطقة العربية وركزنا على الدور البريطاني الأمريكي بالذات ووضعنا خطة لمواجهتا، فان

ذلك يعتبر بداية للفهم الصحيح للصراع وطرق مواجهته ويمهد لاتخاذ خطوات ووضع الخطط اللازمة للخروج من هذا".(١)

ففهم هذا الصراع وحقيقته يسمح لنا من الناحية المعرفية ابتداء التعاطي مع الارتدادات الحادثة في الصراع العربي الصهيوني.

و"يعتبر الأصوليون المسيحيون تجميع اليهود في أرض فلسطين مقدمة ضرورية لعودة المسيح المنتظر، وقيام معركة هرمجيدون، ولهذا لم يذخر هؤلاء جهداً في هذا المجال، حيث تكاثفت جهود الحكومات البريطانية والأمريكية المتعاقبة لتحقيق هذا الهدف. وقد عرضنا في السابق لهذه المحاولات التي بدأت حتى قبل ظهور الحركة الصهيونية بوقت كبير، وما تلاها بعد قيام إسرائيل، وجهود أمريكا وبريطانيا في هذا المجال، والذي وصل إلي ذروته في عهد الرئيس ريجان، الذي سخر كل أحاديثه وتصريحاته للحديث عن انتهاك موسكو لحقوق الإنسان، بسبب رفضها السماح لليهود بالهجرة إلى فلسطين، حيث نجحت الضغوط التي مارسها على موسكو في فتح أبواب هجرة اليهود الروس إلى فلسطين، والذين وصل أكثر من مليون ونصف منهم إلى إسرائيل في فترة وجيزة".(٢)

ويزداد تعقيد المشكلة من خلال تدخل الجغرافيا السياسية ومحاور الصراع الحضاري، خاصة بزر من خلال مركزية أمريكا في العالم.

"فالملاحظ أن من يعتبرون أنفسهم حجاجا إلى فلسطين، من المسيحيين الأمريكيين الأصوليين، يضعون على صدورهم لوحة صغيره كتب عليها: "نحن نحبك يا إسرائيل، لأن الله يحبك".(٣)

٢- السنن الكونية تفسر لنا الظواهر والأحداث وفق نسق واحد ثابت متجدد. ومنها التدافع والتداول. وهذه الرؤية مهمة جدا في رسم الخطط والاستراتيجيات للتعاطي مع قضية فلسطين. وهنا "يجب أن نقرر أن قضية فلسطين قد أيقظت الوعي العام من خدره، ونحن نرى فيها المحور التاريخي الذي أخذ العالم الإسلامي يدور حوله باحثاً عن اتجاه إيجابي جديد".(٤)

٣- القيم الإنسانية هي الفيصل والمحور في التواصل الإنساني الحضاري والإنسان هو محور القرآن وكل الكتب السماوية.

و هذا من خلال الاستثمار الاستراتيجي في التواصل الإنساني الحضاري، لأنه في تصوري البوصلة الوحيدة في التأسيس لثقافة مقدسية إنسانية عالمية، تحقق بالضرورة مقاصد الإسلام.

ثالثا: فلسطين في كتابات فقهاء الحضارة.

١- **مالك بن نبي والرؤية الحضارية:**

يعتبر مالك بن نبي من المفكرين القلائل الذين ينطلقون من الرؤية السننية الحضارية الشاملة في تشخيص الأحداث والظواهر، فهو لا يتوقف عند الجزئيات والتفاصيل وحتى الأشخاص بل يتعاطى معهم من خلال جوهر الأزمة وسببها.

فهو يرى أن أزمة الأمة حضارية بامتياز تتعلق بموقعها من الشهود والشهادة على الناس.

✓ **الظاهرة اليهودية:**

يعتبرها مسألة ذات متغيرات معقدة لا يمكن تفسيرها بالسطحية، فهو مثلا يقول: "ثم إني كنت أرى في تاريخ إسرائيل ظاهرة محيرة: عندما أزفت ساعة الشتات، أي الخروج الثاني لهم خارج فلسطين، توجه اليهود نحو أوروبا التي لا تزال حينها متوحشة ودون تجارة،(٥) وهذه الرؤية الثاقبة يندر من ينطلق منها، لهذا فهو يعتمد على التحليل الأنثروبولوجي والاجتماعي وحتى النفسي للأحداث.

فهو يعتبر أن اليهود هو روح أوروبا، لهذا يفسر المسالة اليهودية وعلاقتها بأوروبا من خلال هذه الأرضية، قائلا:" غير أن هذه التمثيلية وهذا التظاهر أثارا تعجبي، ففكرت: تغلق المساجد في الجزائر وتحدث ملاحقات في فلسطين ولا يندد أحد. تغلق محال في برلين، فيستتبع الحدث سخطا عاما.(٦)

ومن أبلغ الأمثلة على ذلك ميزانية وفد الجامعة العربية إلى الأمم المتحدة عام ١٩٤٨؛ لقد كان هذا الوفد يتصرف فيما يقرب من نصف مليون دولار خلال إقامته بباريس، لم ينفق منها شيئاً في نشر أية وثيقة لعرض مسألة فلسطين على الرأي العام العالمي، بينما أغرق اليهود إغراقاً بدعايتهم. هذا التفاوت الهائل بين الوسائل التي بأيدينا والنتائج التي نحصلها منها، هو صورة نموذجية لجميع ألوان النشاط الإسلامي العام.(٧)

✓ **فلسطين والقابلية للاستعمار.**

يعتبر مالك بن نبي الاستعمار نتيجة سببية وحتمية تاريخية لتخلف الأمة وتعلقها بالوهم في التعاطي مع الأحداث، فهو يعتبر احتلال فلسطين نتيجة لما آلت اليه الأمة من تخلف وتأخر عن ركب الحضارة .... والذي حدث ليس بالضرورة مؤامرة، بل هو تدافع إنساني بخلفية أيديولوجية.

ويحلل الظاهرة بقوله:"إن الأسباب العميقة لكارثة فلسطين ليست أسباباً عسكرية وسياسية فحسب، فلقد كشفت الهزيمة عن نقائصنا الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والعسكرية، تلك التي تعاني منها بلادنا، وليس يكفي أن نعرف أخطاءنا التي وقعنا فيها، وأن نكشف عن نقائصنا، بل المهم أن نفيد منها درساً لعلاجها".(٨)

فهو ينبه في كتبه للفجوات التي نعاني منها، وهي في الغالب ذاتية استغلها اليهود من خلال الاستثمار في المؤسسات الدولية والتحكم في مفاصل أوروبا من خلال الفكرة اليهودية التي أثرت في الفكرة المسيحية.

✓ **فلسطين والعرب:**

قدم الأستاذ مالك بن نبي رؤية وتصورا لما يجل أن يكون عليه العرب في مواجهة الغطرسة الصهيونية من خلال:

- التحول من البداوة إلى الحضارة وتفعيل شروط النهضة:

ويقول في هذا المجال "وكان من نتائج قضية فلسطين أيضاً أن تطرقت هذه الفكرة إلى مجال الاهتمام الرسمي، يشهد بذلك تجربة الإصلاح الزراعي في سورية، فللمرة الأولى في العالم الإسلامي الحديث تواجه مشكلة الإنسان والتراب والوقت، وينص عليها في دستور قومي، وقد كان في حسبان هذه التجربة أن تعمل على تحضير البدوي المترحل، وأن تجهد في تكييف التراب في ضوء الحالة العامة للشعب، فالمشكلتان في الواقع مرتبطتان، إذ أنه لا يمكن للبدوي أن يستقر ما لم يربط مصيره بالتراب، ومن أجل هذا نص الدستور السوري على تخصيص ملايين".(٩)

- تفعيل المؤسسات القومية مثل الجامعة العربية:

فهو يعتقد بضرورة الاهتمام بالدور الحضاري لهذه المنظمة الذي أصبح شكليا، فهو يصف بعض الجهود والممارسات بالعبث، بقوله:" ورثنا عنها التنافس على المقاعد الأولى، حتى في لجان الإنقاذ في كارثة فلسطين في البلاد الإسلامية.(١٠).

ومع هذا ينتظر منها المزيد من التدافع والتموقع بقوله: "وعلى الرغم من الكارثة التي أصابتنا في فلسطين، فإني أعتقد أن الجامعة العربية تستطيع أن تسترد هيبتها، إذا ما اهتمت بالمشكلات الاجتماعية والاقتصادية، ورسمت خطة تستهدف تحسين مستوى المعيشة. فيجب أن نحرر شعوبنا من خوفها".(١١)

٢- **عبد الوهاب المسيري والمسألة اليهودية:**

تميزت كتابات المسيري بالعمق في تناول اليهوديَّة، والحركة الصِّهْيونيَّة. ومن أعظم أعماله على الإطلاق ذو الأجزاء الثمانية: "موسوعة اليهود واليهوديَّة والصِّهيونيَّة: نموذج تفسيري جديد"، الذي يمثل علامة فارقة في البحث والتحليل لهذه الظاهرة، والذي اؤمن به أن التشخيص الجيد مقدمة مهمة وانطلاقة أساسية في فهم الأحداث ومن ثم التعاطي معها.

"ومن كان لا يعلم، فليَعلم أنه في عام ١٩٨٤ عندما بدأ المسيري في كتابة الموسوعة، تلقَّى خطابات تهديد بالقتل ثلاث عشرة مرة: ستًّا في الرياض؛ حيث كان يدرس في جامعة الملك سعود، وستًّا في القاهرة؛ حيث يُقيم، أمَّا الخطاب الثالث عشر، فقد جاءه بعد يومين من وصوله إلى القاهرة قادمًا من الرياض، وجاء فيه: "نحن نعلم أنَّك قد عُدتَ لتوِّك من الرياض، ونحن نُعدُّ لك قبرًا"، وكان المرسل هو مائير كاهانا رئيس منظمة كاخ، باعترافه هو في حوار أجْرته معه صحيفة يديعوت أحرونوت"(١٢).

- **المسيري والانتفاضة الفلسطينية:**

يرى المسيري أن اليهود وقعوا كذلك في دهان السهولة في تعاملهم مع القضية الفلسطينية، قائلا: "اعتقَد اليهود – أو أُريد لهم أن يَعتقدوا – أن فلسطين – بعد أن يدخلوها أو يَقتحموها – ستكون بلا ريبٍ لقمةً سائغة، وجنة عَدن التي وُعدوا بها، وعلى عكس ما أمَّلوا، فقد غَدت فلسطين جحيمًا مُتسعرة، يَلفح وجوهَهم أُوارُها، وتُحرِّق جلودَهم نارُها الجامحة، وتدريجيًّا بدأ الإسرائيليون يشعرون بأنَّ انتصاراتهم العسكريَّة لا معنى لها، وأنها لَم تَنجح في تحقيق

السلام أو الأمْن لهم، (فيما سمَّاه المؤرخ الإسرائيلي يعقوب تالمون: "عُقم الانتصار"، مُقتبسًا عبارة هيجل)، وأنهم خُدِعوا عندما صُوِّر لهم أنَّ عملية الاستيطان في فلسطين سهلة، وتدريجيًّا تَنامَى إحساس بالورطة التاريخيَّة"(١٣).

ويضيف بكل ثقة :"ولَم يَعُد خافيًا على مَن يُتابع الانتفاضةَ الفلسطينية المباركة، أنها أصبَحت المُؤرِّقَ الوحيد الذي يقضُّ مضاجعَ الإسرائيليين، يُحدِّثنا المسيري عن هذه الانتفاضة ومزاياها، وآثارها المزلزلة للكيان الصِّهْيوني، فيقول على سبيل المثال عن الحجارة – الآلة المستعملة في الانتفاضة–: "إن اختيار الحجر سلاحًا، كان قمةً حقيقية في الإبداع، بل إنني أذهب إلى أنَّ النموذج الانتفاضي وصَل إلى قمَّة تَبَلْوُرِه في إلقاء الحجارة، وكلُّ شيء آخر في هذه الانتفاضة هو مجرَّد تنويع على إلقاء الحجارة"(١٤).

هذه الحجارة التي يعيدها أبعادا جديدة متجددة تتعلق بالإنسان، ويُضيف المسيري قائلاً: "ونحن إذا نظَرنا إلى الحجر، وجَدنا أنه يتَّسم بالصفات التالية:

- الحجر متوفِّر في كلِّ مكانٍ، ولا يُستورَد من الخارج.
- الحجر يمكن استخدامه عدَّة مرات، وربما إلى ما لانهاية؛ أي: إنه يُمكن تدويره.
- الحجر سلاح لا يُمكن نزعه أو مُصادرته.
- لا يتطلَّب استخدام الحجر دوراتٍ تدريبيَّة، أو حلقات تَوْعية.
- بوسع الإنسان أن يلقي بالحجر ويَفرَّ، فيَضمنَ لنفسه البقاء.
- يُسبِّب الحجرُ الألَم والأذى، ولكنَّه ليس مُدمِّرًا؛ ولذا فإن أمسَك العدوُّ برامي الحجر – خاصة في وجود وسائل الإعلام – فلن يُمكنه استخدام آلته العسكرية ضدَّه إلاَّ بحذرٍ شديد.
- لا يتطلَّب النِّضالُ بالحجارة عمليةَ تنظيم مركزيَّة أو قيادة قويَّة.
- يُمكن لكلِّ الناس من كلِّ الأعمار استخدامُ الحجر، وارتجال طريقة إلقائه بالطريقة التي تُريحهم، وتَضمن في ذات الوقت إصابةَ الهدف"(١٥).

ومثلت هذه الرؤية منعطفا في فكر المسيري، الذي لا يتوقف عند الأعراض والأحداث، وفهو يرى في الانتفاضة ثورة إنسانية تتعلق بالخلق والوجود، "و لم تتوقف هذه الانتفاضة بالحجارة بل أخذت أبعادا جديدة، حيث "انتقَلت من المظاهرات الحاشدة وإلقاء الحجارة على جنود الاحتلال في المراحل المبكرة، إلى المقاطعةِ لكلِّ ما هو إسرائيلي، ورفْضِ التعاون مع

سلطات الاحتلال، وأخيرًا إلى إلقاء القنابل الحارقة وإشعال الحرائق في الغابات والمزارع الإسرائيليَّة"(١٦).

- **المسيري ونظرية المؤامرة:**

يُعلِّق المسيري على نظرية المؤامرة التي أخذت المركزية لعدة قرون في الفكر العربي قائلا: "من أساطير الفلكلور السياسي العربي البروتوكولي عن الصهاينة، أنهم يعرفون كلَّ شيء عن شيءٍ، وأنَّ ملفاتهم دائمًا كاملة، وأن المُخطط الصِّهْيوني قد أُعدَّ بعد تخطيط دقيقٍ، وأنه يجري تنفيذُه بحذافيره، وكأننا دُمًى خشبية يُمسك بها الصهاينة، ولعلَّ الانتفاضة أثبتَت أنَّ الصهاينة لا يُمسكون بأي خيوطٍ، وأننا لسنا بالضرورة عرائسَ خشبيَّة"(١٧).

هذا يجعل من يري المسيري أنَّ هذه البروتوكولات المنشورة عام ١٩٠٥، إن هي إلا وثيقة مُزيَّفة، وأنَّ الاعتقاد بصحَّتها يدخل فيما سمَّاه "الفكر البروتوكولي التآمُري"، ومن الواضح –يقول المسيري–: "أنَّ البروتوكولات نصٌّ روسي غير يهودي، بمعنى أنَّ مَن كتَبه يَنتمي إلى التشكيل الحضاري الروسي، وإلى الكنيسة الأرثوذكسيَّة، كما ينتمي سياسيًّا إلى التشكيل السياسي الرجعي القيصري"(١٨).

والذي أومن به أن المؤامرة المقبولة واقعيا وموضوعيا هي المؤامرة البعدية التي تتلخص في التدافع والسيطرة على النفوذ.

"وفي موضعٍ آخرَ يُبيِّن المسيري أنَّ الرأي السائد في الأوساط العلميَّة، التي درَست البروتوكولات دراسةً عميقة، أنَّها مُزورَّة، وأنَّ كاتبها استفادَ من كُتيِّب فرنسي، عنوانه "حوار في الجحيم بين ماكيافللي ومونتسيكو"، كتَبه صحفي اسمه موريس جولي، يَسخر فيه من نابليون الثالث".(١٩)

المسيري والمسالة الصِّهْيونية:

يؤكِّد المسيري في غير موضعٍ من كُتبه ومقالاته، أنَّ الصِّهيونية في جوهرها: هي حركةٌ لتخليص أوروبا من الفائض البشري اليهودي (Jewish surplus)، عن طريق نقْله من أوروبا، وتوطينه في أي منطقة أخرى، وقد استقرَّ الرأي على أن تكون فلسطين هي هذه المنطقة؛ نظرًا لأهميَّتها الاستراتيجية، وارتباطها في الوجدان الغربي باليهود..

هذا بالطبع يقودنا إلى سؤال مهمٍّ: هل الدولة الصِّهيونيَّة يهودية حقًّا؟

يُبين المسيري أن "الوحدة اليهودية العالمية"، فهو يَفترض أنَّ أعضاء الجماعات اليهوديَّة في العالم، يُشكِّلون وحدةً واحدة، اسمها الشعب اليهودي، وأنَّ هذا الشعب اليهودي اكتسَب هُويَّته من العقيدة اليهوديَّة التي لا تَكتمل شعائرها إلاَّ في أرض الميعاد، ولا يُمكن أن تتحقَّق هُويَّة هذا الشعب بشكلٍ ما، إلاَّ في هذه الأرض التي وعَد الإلهُ شعبَه المختار بها.

هذا التصوُّر يَجعل من طَرْدها للفلسطينيين واحتلال أراضيهم، مسألة تحرير للوطن القومي، يقوم بها المستوطنون العائدون، ويَجعل من الاستمرار في قتْل الفلسطينيين وتشريدهم عمليةَ دفاعٍ مشروع عن النفس، ويَجعل من مقاومة الاستعمار الاستيطاني الصِّهيوني عملاً إرهابيًّا"[٢٠].

ثن: "إنَّ التصاق الصِّهيونية باليهودية، من شأنه أن يُسبغ عليها نوعًا من الشرعيَّة، ويَضمن لها تأييدَ الرأي العام في الغرب، ويُضيف المسيري أنَّ مؤسس الحركة الصِّهيونية ثيودور هرتزل، لَم يَكترث كثيرًا باليهودية دينًا، بل كان يتعمَّد خرْقَ قواعدها وقوانينها، وهذا حال جلِّ الزعماء الصهاينة الأوائل.[٢١].

- **<u>المسيري ونهاية إسرائيل:</u>**

يبزر المسيري هذه الرؤية بقوله: "إنَّ موضوع نهاية إسرائيل مُتجذِّر في الوجدان الصِّهيوني، فحتى قبل إنشاء الدولة، أدرَك كثيرٌ من الصهاينة أنَّ المشروع الصِّهيوني مشروع مستحيل، وأنَّ الحلم الصِّهيوني سيتحوَّل إلى كابوس"[٢٢].

ومن هذا المنطلق تستخلص النقاط التالية:

- ✓ استحالة تطبيق هذا المشروع لاعتبارات الواقعية والموضوعية.
- ✓ سننيا وسببا سيتحول هذا الحلم إلى انسداد في الرؤية المؤدية إلى مشاكل داخلية.

ويفصل ذلك بقوله "وبالرغم من هذا الواقع، فإنَّ إسرائيل تسعى في إفهام الذين حولها أنها مثل "العقدة الشمشونيَّة"، فإذا استُفزَّت وحُوصِرت، وضُيِّقتْ عليها السُّبلُ، فإنها لن تُبقي ولن تذَر، وكما يقولون: عليَّ وعلى أعدائي، تمامًا كما فعَل شمشون في الهيكل، ومثل ذلك ما يُسمَّى بأسطورة "ماساداه"، آخر قلعة يهودية سقَطت في أيدي الرومان أثناء التمرُّد اليهودي الأوَّل ضدَّ الإمبراطوريَّة الرومانية (٧٧ – ٧٠ ميلادية)؛ حيث يقال: إنَّ المحاربين اليهود المُحاصَرين، فضَّلوا الانتحار على الاستسلام للرومان"[٢٣].

٣- **طه عبد الرحمان والرؤية الائتمانية:**

النظرية الائتمانية عبارة عن نظرية أخلاقية تتأسس على حقائق الإنسان التي اشتركت فيها الأديان وتوارثتها الحضارات، سواء هذه الحضارات بأصولها الدينية أو أنكرت هذه الأصول[٢٤]

- المرابطة رؤية فلسفية متجددة:

"المرابطة المقدسية هي المقاومة التي تلازم ثغور الأرض المقدسة لتتصدى لتدنيسها وتعيد إيها قداستها، وتلازم الفطرة المؤصلة لتتصدى لتزييفها وتعيد إليها أصالتها"[٢٥].

- ✓ مبدأ رد الظواهر إلى الآيات[٢٦]
- ✓ مبدأ توارث الأثار الروحية للأعمال.
- ✓ مبدأ رؤية الإرادة الإلهية في العالم.

الشكل التالي يلخص معالم المرابطة المقدسة[٢٧]:

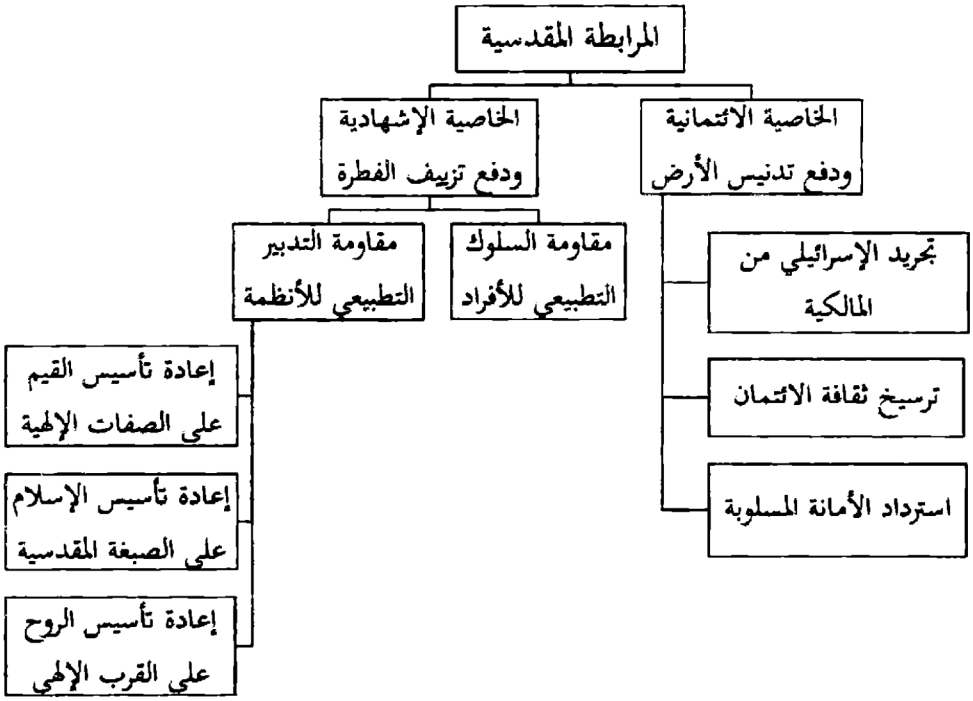

وبالعودة إلى الاختيار المنهجي للكتاب، وإلى اتجاهه الإيديولوجي، يبدو أن طه عبدالرحمان فضل الكشف عن أجندته السياسية التي طالما أخفاها بغلاف (فلسفي) شفاف، والواضح أنها تصب، منهجيا، في الاتجاه العرفاني وتصب، سياسيا، في الاتجاه الصحوي ببعديه

الإخواني والخميني. وكلا الاتجاهين يخططان، منذ تأسيسهما، لنقل مركز الحضارة الإسلامية من مكة، حيث الميلاد والبعثة النبويين، إلى القدس حيث اتجاه الإسراء بالنبي. فالإسراء بالنبي (صلى الله عليه وسلم) من المسجد الحرام (مكة) إلى المسجد الأقصى (القدس) يتجاوز، من المنظور الطاهوي، الطابع الإعجازي، ليؤسس لمشروع إيديولوجي ينقل مركز الحضارة الإسلامية من مكة إلى القدس.

- **القبلة معنى متجدد كوني:**

تناول طه عبد الرحمان مفهوم "القبلة" من خلال الأبعاد الإنسانية ولحضارية لها، فهو لا يفصل بين القبلات، ويعطيها نوعا من التكامل والتفاعل والترابط بينها.

ذلك أن الرؤية الإنسانية التي يقرها الإسلام ويتفاعل معها لا تتوقف عند عالم الأشياء والمحسوسات بل ترتفع إلى مستوى الأفكار والقيم. قائلا: "فما لم يستحضر المصلي في قلبه سابق التوجه إلى قبلة المقدس، وهو يولي وجهه شطر القبلة المكية، فلا يستطيع أن يتحقق بكمال التوجه، فحينها يجوز القول أن حاضر التوجه إلى البيت الحرام هو من ماضي التوجه إلى المسجد الأقصى"(٢٨).

- **فلسطين رؤية ائتمانية:**

تميز طه عبد الرحمان بهذا العرض النادر في تعاطيه مع القضية الفلسطينية باعتبارها قيمة وأرض وإنسان، واختصر الاحتلال الإسرائيلي بـــ:

✓ **احتلال الأرض وإيذاء الله.**

يمكن القول بأن إيذاء الله، عند الإسرائيليين، يشهد به تاريخهم الطويل، إذ أن ذاكرتهم التوراتية والتلمودية تحفظ أن أسلافهم منذ أن خرجوا من مصر، وهم ينقضون المواثيق والعهود التي أخذها الحق سبحانه منهم، ويخالفون أوامره ونواهيه، ويؤذون أنبياءه ورسله اليهم، حتى كأنهم في حرب سجال معه (٢٩).

كما نحصي من أساليبهم الإحلالية ما يأتي: أولها "الإحلال الثابت وذلك ببناء المستوطنات والجدران والطرق الالتفافية، والثاني "الإحلال المتوسع "ويتم بطريق الضم والإلحاق والثالث "الإحلال المتدرج" ويقوم في تطبيق القوانين الإسرائيلية وممارسة الطقوس اليهودية والرابع "الإحلال المطلق "زمانا ومكانا.(٣٠)

✓ **احتلال الفطرة وإيذاء الإنسان:**

لئن كان الإسرائيليون لا يستحيون من الاله، فبأن لا يستحيوا من الإنسان من باب أولى، واذا كانوا قد آذوا الاله في أخص صفاته، فبأن يؤذوا الإنسان في أخص صفاته من باب أولى، ولما اتخذ هذا الأذى صورة الاحتلال، لزم أن يكون إيذاؤهم عبارة عن احتلال أخص ما يميزه، وهو بالذات فطرته التي يصنع تراثه الأصيل، والفطرة عبارة عن ذاكرة التي تحفظ القيم والمعاني المبثوثة في روح الإنسان منذ خلقه"[٣١].

الشكل التالي يلخص أهم محاور هذه المقاربة الائتمانية[٣٢]:

خاتمة

الرؤية الحضارية لقضية فلسطين تسمح لنا من الناحية المنهجية والموضوعية التعاطي معها لفهم:

- ✓ جوهر الأزمة وأبعادها: فهي في الأصل صراع متعدد الأبعاد، باعتبار دخول المتغيرات سياسية واقتصادية واجتماعية.
- ✓ مركزية المسألة الإنسانية وضرورة ثقافة التعايش كرؤية ومنهد وهدف في الحوار الإنساني الحضاري.
- ✓ فلسطين تبقى قبلة بمفهومها الحضاري العام، تتجسد فيها البعد الثقافي بين الشعوب، وفي تصوري أن الإسلام مؤهل من خلال الأحكام والمقاصد والسنن للقيام بهذا الدور.
- ✓ التدافع سنة من السنن الله في خلقه، وفلسطين لا يمكن تحريرها إلا بالعدة السياسية والاقتصادية والعسكرية.
- ✓ الأمة الإسلامية عندما فقدت معنى القبلة في العبادة ضيعت بالضرورة قبلة بوصلة الشهود الحضاري.
- ✓ قضية فلسطين تلخص واقع الامة وهي مقياس ومعيار مستوى الحضاري للامة.

هوامش البحث ومصادره:

(١) الحملة الصليبية على العالم الإسلامي والعالم (الجذور – الممارسة – سبل المواجهة)، يوسف العاصي إبراهيم الطويل صوت القلم العربي، مصر الطبعة: الثانية، ١٤٣١هـ – ٢٠١٠ م، ج٤ ص١٤١.

(٢) لكتاب: الحملة الصليبية على العالم الإسلامي والعالم (الجذور – الممارسة – سبل المواجهة)، ص٢٨٦.

(٣) الحملة الصليبية، المرجع نفسه، ص٣١٩

(٤) وجهة العالم الإسلامي، مالك بن نبي، دار الفكر معاصر بيروت-لبنان / دار الفكر دمشق – سورية الطبعة: ١٤٣١هـ = ٢٠٠٢م / ط١: ١٩٨٦م، ص١٠٧

(٥) مذكرات (العفن)، الك بن نبي ترجمة: نور الدين خندودي، دار الأمة الطبعة: الأولى، ٢٠٠٧ ص٧٩.

(٦) مذكرات (العفن)، المرجع نفسه ص ٨٧.

(٧) الكتاب: وجهة العالم الإسلامي، المرجع نفسه، ص ٩١.

(٨) وجهة العالم الإسلامي ص ١٤٥.

(٩) وجهة العالم الإسلامي ص ١٥١.

(١٠) شروط النهضة، مالك بن نبي، دار الفكر–دمشق، ١٩٨٦م، ص ٩٨.

(١١) وجهة العالم الإسلامي ص ١٤٦.

(١٢) انظر "البروتوكولات واليهوديَّة والصِّهيونية"؛ عبدالوهاب المسيري، ص (١٨)، القاهرة: دار الشروق، ط ١، ٢٠٠٣.

(١٣) من مقالة: "عندما تتحول الصِّهيونية إلى نكتة"، نُشِرت في موقع الجزيرة، ٧ – ٤ – ٢٠٠٩.
http://www.aljazeera.net/NR/exeres/EDFF7225-0ECB-4585-B237-CF86F0C2C7A1.htm

(١٤) البروتوكولات واليهودية والصِّهيونية"، ص (٢١٨).

(١٥) المرجع السابق، ص (٢١٨ – ٢١٩).

(١٦) المرجع السابق، ص (٢٢٢).

(١٧) المرجع السابق، ص (٢٢٤)

(١٨) المرجع السابق، ص (٢٠).

(١٩) المرجع السابق، ص (١٣).

(٢٠) من كتاب المسيري "مَن هم اليهود؟ وما هي اليهودية؟ أسئلة الهُويَّة وأزمة الدولة اليهوديَّة"، ص (٣٤٧)، القاهرة: دار الشروق، ط ٥، ٢٠٠٩.

(٢١) المرجع السابق، ص (٣٤٦).

(٢٢) مقالة "نهاية إسرائيل"، نُشرت في موقع الجزيرة ١٨– ٩ – ٢٠٠٩.
http://www.aljazeera.net/NR/exeres/E6F1079D-89C6-4E7B-AB16-D1D376D0A9A3.htm

(٢٣) "البروتوكولات واليهودية والصهيونية"، ص (٢٤٩).

(٢٤)] طه عبد الرحمان – ثغور المرابطة: مقاربة ائتمانية لصراعات الأمة الحالية – منشورات مركز مغارب– ط:١ – ٢٠١٨ – ص: ١١

(٢٥) طه عبدالرحمان، ص٣٧.

(٢٦) ص ٤٥–٤٦–٤٧.

(٢٧) ص ٦٢.

(٢٨) طه عبد الرحمان– ثغور المرابطة – ص: ٦٩

(٢٩) طه عبد الرحمان– ثغور المرابطة – ص ٢١.

(٣٠) المرجع السابق ص ٢١.

(٣١) المرجع السابق ص٢٤.

(٣٢) المرجع السابق ص٣٥.

المراجع

١. الحملة الصليبية على العالم الإسلامي والعالم (الجذور – الممارسة – سبل المواجهة)، يوسف العاصي إبراهيم الطويل، صوت القلم العربي، مصرالطبعة: الثانية، ١٤٣١ هـ – ٢٠١٠ م، ج٤.

٢. وجهة العالم الإسلامي، مالك بن نبي، دار الفكر معاصر بيروت–لبنان / دار الفكر دمشق – سورية، الطبعة: ١٤٣١هـ = ٢٠٠٢م / ط١: ١٩٨٦م

٣. مذكرات (العفن)، الك بن نبي ترجمة: نور الدين خندودي، دار الأمة، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٧ ص ٨٧.

٤. شروط النهضة، مالك بن نبي دار الفكر–دمشق، ١٩٨٦م، ص ٩٨.

٥. انظر "البروتوكولات واليهوديَّة والصِّهيونية"؛ عبدالوهاب المسيري، ص (١٨)، القاهرة: دار الشروق، ط ١، ٢٠٠٣.

٦. من مقالة: "عندما تتحول الصِّهيونية إلى نكتة"، نُشِرت في موقع الجزيرة، ٧ – ٤ – ٢٠٠٩.
http://www.aljazeera.net/NR/exeres/EDFF7225-0ECB-4585-B237-CF86F0C2C7A1.htm

٧. البروتوكولات واليهودية والصِّهيونية"، ص (٢١٨).

٨. من كتاب المسيري "مَن هم اليهود؟ وما هي اليهودية؟ أسئلة الهُويَّة وأزمة الدولة اليهوديَّة"، ص (٣٤٧)، القاهرة: دار الشروق، ط ٥، ٢٠٠٩. مقالة "نهاية إسرائيل"، نُشِرت في موقع الجزيرة ١٨– ٩ – ٢٠٠٩.

٩. مقالة "نهاية إسرائيل"، نُشِرت في موقع الجزيرة ١٨– ٩ – ٢٠٠٩
http://www.aljazeera.net/NR/exeres/E6F1079D-89C6-4E7B-AB16-D1D376D0A9A3.htm

١٠. "البروتوكولات واليهودية والصهيونية"، ص (٢٥٠ – ٢٥١). طه عبد الرحمان – ثغور المرابطة: مقاربة ائتمانية لصراعات الأمة الحالية – منشورات مركز مغارب– ط:١ – ٢٠١٨